أدباء ومدرسون ! . . .

« حديث ذو شجون إلى وزارة المعارف
وإلى الدكتور زكي مبارك . . . »

للأستاذ محمد سعيد العريان

تلطف الدكتور زكي مبارك فتناول في حديث الأسبوع الماضي موضوع « الترقية إلى المدارس الثانوية » ؛ وهو موضوع من حق صديقنا الدكتور زكي مبارك أن يتحدث عنه ، لأنه بسبيل من عمله الرسمي في وزارة المعارف ، وعمله الأدبي في مجلة « الرسالة » ؛ فليس من حق أحد أن يدهش للأسلوب الذي تناول به موضوعه ، أو الطريق الذي سلكه لإبداء الرأي فيه ؛ وإنه لمن الغبن أن يكون الدكتور زكي مبارك ملوماً على ما في حديثه ذاك من التناقض وفساد الحكم ؛ إذ كان يملي عليه الرأيَ حين يحكم شخصيتان لا تجتمعان على فكرة واحدة : شخصية زكي مبارك المفتش بوزارة المعارف ، وشخصية زكي مبارك المؤلف المحقق الأديب ؛ ومن أين لهاتين الشخصيتين أن تجتمعا على رأي وبينهما ما بينهما من الفوارق العقلية ، ولكل منهما مقياسه في موازين الأشياء . . . !

والموضوع الذي تناوله الدكتور زكي مبارك حقيق بالبحث والدراسة ، لأنه موضوع عام يتصل من قريب بشأن من أخص شؤوننا الأدبية ، إذ كان العلم هو فكرة الشعب ، وأماني الغد ، ومستقبل الثقافة ، ولكن هذا الموضوع على عمومه يتصل بجانب من حياتي الخاصة يحرجني أن آتخذه موضوعاً للحديث ، ولعل كثيراً من الذين يقرءون لي في الرسالة منذ سنين ، لم يَدُرْ في خلد أحد منهم أن يسأل عن عملي الذي أتكسب منه ووظيفتي الرسمية التي أعيش بها قبل أن يُعرِّف بي الدكتور زكي مبارك . . .

ومعذرة إلى طائفة من القراء ، فإن الرأي العام في مصر وفي الشرق ما زال يقيس منازل الرجال على قدر منازلهم في مناصب الحكومة أو منازلهم في دولة المال !

على أنه لا مندوحة لي اليوم عن الحديث في موضوع كنت أتنكّبه فراراً من التهمة ، ولست أطمع بعد في كلمة عطف أو أخشى كلمة ملام ، فإني لقوى بنفسي عن استجداء العطف أو خوف الملام ، ومن وجد في نفسه الطاقة فليس له عذر من التقصير ؛ وليغضب من يغضب لنفسه أو للحق ، فليس بي إلى أحد حاجة ، وليس لي في سبيل الحق أن أخاف سطوة إنسان !

* * *

وأبدأ حديثي لأصحح للدكتور زكي مبارك قوله : « الترقية إلى المدارس الثانوية » فإن كلمة « الترقية » هنا لا تؤدي معناها اللغوي كما يفهمه أهل التحقيق ، وليس في نقل معلم من المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الثانوية أي معنى من معاني « الترقية » وليس ثمة فرق بين معلم هنا ومعلم هناك ، لا في الدرجة العلمية ، ولا في العمل ، ولا في المال ، ولكن الفرق كل الفرق في التلميذ وفي المكان . . .

هذا حق يعرفه زكي مبارك « المفتش بوزارة المعارف » ، كما يعرفه وزير المعارف نفسه ، وكما يعرفه المعلمون جميعاً في المدرستين الابتدائية والثانوية ؛ ولكن لماذا ، لماذا — والأمر كذلك — تصر وزارة المعارف على تسمية هذه النقلة « ترقية » ؟ ولماذا يشكو طوائف من المعلمين فيطلبون حقهم في هذه « الترقية » ؟

جواب ذلك : أن هذه « النقلة » هي مظهر من مظاهر « الثقة العلمية » بالعلم المنقول ، وهي « اعتراف رسمي » بأن لهذا العلم أهلية لتعليم طائفة من التلاميذ أنضج عقلاً من إخوانهم في المدرسة الابتدائية ؛ وعنده « الثقة العلمية » وهذا « الاعتراف الرسمي » هما كل جزاء المدرس المنقول ، وهما حسبه وكفايته ؛ وأهل العلم دائماً هم أقنع الناس بالقليل !

أكتفي بهذا القدر لأن الإطالة قد بلغت حداً لم أكن أقصد إليه

أما بعد : فيا أيها الإنسان العظيم النائم الآن بفرحة الحب الأسمى ، لقد بلغت رسالتك الجميلة ، وأسكرت الدنيا بترانيمك المترعة رحمة ومحبة ، ودعوة للسلام والألفة ، فمن حقك أن تهنأ الآن بلقاء حبيبك الأعظم ، ومن حقك على الدنيا هذه أن تذكر فضلك ، وأن تهتدي بهدى روحك العظيم يوم تصحو من هذا الجنون المطبق ، وهي لا بد أن تصحو يوماً .

(بغداد) حسين مروه

... وقد سنت وزارة المعارف سنة منذ عامين : أن تُسبَّق بين المعلمين فى امتحان سنوى عام ، لتمنح أسبقهم ثقتها العلمية واعترافها الرسمى

* * *

لقد كثر ما تحدث المربون عن عيوب الامتحان ، واختلال ميزانه ، وجنايته على شخصية التلميذ ... أفلم تجد الوزارة — بعد تجارب السنين — وسيلة لاختبار كفاية المعلم غير الامتحان وقد قالت ما قالت فيه وسمعت ما قيل ؟

أليس لدى وزارة « المعارف » من وسائل « المعرفة » فى ذلك غير امتحان « المعلمين » ؟ بلى ! هكذا قالت وزارة المعارف منذ سنتين وما تزال تقول : الامتحان !

الامتحان ؟ بالله كيف صارت عيوبه حسنات ، واختلال ميزانه دقة ، وجنايته على « شخصية التلميذ » سبيلاً إلى تحديد « شخصية المعلم » ؟

ولكن لا علينا من ذاك ؛ فليس يعنينا ما تكون وسيلة وزارة المعارف إلى اختيار معلميها ، ولو كانت المباراة بين المعلمين فى حمل الأثقال ... !

ولكن ، لأى شىء سنّت الوزارة سنة الامتحان ؟

الوزارة تقول إنها تقصد من ذلك إلى استثارة القوى والكشف عن « الكفايات المغمورة » ؛ هذا كلامها ؛ فما بالها تصر على امتحان ذوى القوى العاملة و « الكفايات المشهورة » إذا لم يكن القصد من الامتحان إلا الكشف أو الاستكشاف ؟

ما قيمة المصباح تشعله فى النهار والشمس طالعة ؟

وما عمل المظلة ترفعها على رأسك فى الظلام ولا مطر ولا غمام ؟

وماذا يقول المعلم يوم الامتحان إذا كانت مؤلفاته وأعماله الأدبية هى موضوع الامتحان ؟

* * *

هنا مشكلة أدبية عامة ، هى مشكلة « النفر الستة » الذين قصّر عليهم الدكتور زكى مبارك حديثه فى العدد الماضى .

ليت شعرى ما شأنك وشأنهم يا صديقى ؟ إنك لتعرف هؤلاء النفر الستة معرفة الرأى والنظر ، وتعرف كم أبلَوْا فى جهادهم للعلم منذ سنين ؛ وأراك لم تنكر أقدارهم العلمية والفنية على طول ما تعقّبتَ عليهم وتجنيت .

هؤلاء النفر الستة يا صديقى — وأنا منهم — لم يرجوا وزارة المعارف أن ترقيهم إلى المدارس الثانوية كما ظننت ، فإنهم أصدق نظراً من أن تخدعهم الفروق الصغيرة بين الأسماء فتحملهم على الرجاء والاستجداء ...

بلى ، نحن لم نطلب هذه « الترقية » ، ولم نَسْعَ لها ، ولا نعرف لها طعما مما يمر فى الأفواه ويحلو ؛ وإن لنا من الإيمان بأنفسنا ومن الإيمان بمعنى الأدب ما يرتفع بنا عن ذلك المستوى ، ولكنا كتبنا لننبّه وزارة المعارف إلى معنى أدبى كان ينبغى ألا تغفل عنه أو يغفل عنه القائمون بشؤنها ؛ — كتبنا لننبّهها إلى أنها بما أكثرت من الحديث والنشر عن امتحان المسابقة ، ونتائج المسابقة ، قد ألقت فى وهم الناس أن معلم المدرسة الابتدائية ليس له من العلم مثل حظ المعلم فى المدرسة الثانوية ، وليس له تحصيله وكفايته ... ...

هذا المعنى يا صديقى يسوءنى ويسوءك ، ولكنه يسىء إلى وزارة المعارف أكثر مما يسوءنى ويسوءك حين يعرف الناس أن بين المعلمين فى المدارس الابتدائية طائفة من أهل التأليف والتحقيق يدوى صوتهم فى آذان الشرق العربى ويملأ حديثهم نوادى الأدب هنا وهناك ولا تكاد تحس بهم وزارة المعارف ..!

أى تهمة يا صديقى تنال وزارة المعارف فى سمعتها ، وماذا يقول الناس عن كفايتها وحسن تقديرها للآثار العلمية ، وهى تجهل أقدار العاملين من معلميها وما أنتجوا من بحوث وما استحدثوا من فنون ؟

... هذا المعنى يا صديقى هو الذى رفعنا من أجله الصوت إلى وزارة المعارف — ووزيرُها من أهل التأليف والتحقيق — نطلب إليها أن ترد إلينا الاعتبار العلمى ، فتعترف بنا أدباء ومؤلفين ومحققين

ولكنك تقول يا صديقى : « إن هذا الباب إن فُتح فسيتيح فرصاً كثيرة لأدعياء التأليف والتحقيق ... »

وأعيذك يا صاحبى أن تكون قصدتَ إلى المعنى الذى تشير إليه عبارتُك ؛ فأى عمل لوزارة المعارف إن كانت لا تدرك الفرق بين الدعىّ والأصيل من أهل التأليف والتحقيق ؟

ويذكّرنى قولك هذا يا صديقى كلمةً قالها لى الدكتور فلان

منذ بضعة أشهر ؛ قال : « لو كنتَ موظفاً فى مصلحة التنظيم لوجدتَ من وزيرها اعترافاً بمجهودك الأدبى أكثر مما أنتَ واجدٌ اليوم فى وزارة المعارف ... ! »

* * *

على أن المسألة يا صديقى وجهاً أخطر من ذلك وأبعد أثراً فى أدب الجيل ؛ فإن إنكار الفضل على « ستة نفر » استعلنوا بجهادهم بين ألف ومائتى معلم فى المدارس الابتدائية ، جديرٌ بأن يُفسِد هؤلاء «النفر الستة» حلاوةَ الإيمان بمعنى الأدب ، ويردّهم آلات لا يعملون إلا « الواجب » ، الواجبَ الذى يُؤجَرون عليه بالطعام والشراب واللباس وزخرف الحياة ، وأعوذ بالله من سوء الخاتمة !

ومالى أبعد فى الظن وأقدّر وأتوقع وأترك الواقع الملموس ! ألستَ تعرف كما أعرف يا صديقى مَن الذى « يؤلف » أكثر الكتب المدرسية فى وزارة المعارف ومن الذى « يشرّفها » باسمه الكريم ؟ ... أحسبك لا تطالبنى بالتصريح بأكثر من ذلك ، لأنك لا تحاول أنت أن تنكره ولا أحاول أنا أن أخفيه ... ...

وتسألنى : ما لهذا وللمشكلة التى نعالجها اليوم وتلك قضية من قضايا الأخلاق وهذه مشكلة من مشاكل الأدب ؟

وأقول : إنه ما دام الاعتبار الأول عند وزارة المعارف فى الحكم على الآثار الأدبية هو « وظيفة المؤلف » فما بدّ أن يكون هناك تعاونٌ بين ذوى « العلم » وذوى « الجاه » شبيهٌ بالتعاون بين « رأس المال » و « جهد العامل » فى تكوين « شركة » من شركات « الربح والتشمير » !

أتريد أمثلة يا صديقى أم كفاك ما تعرفه وأعرفه مما لا تحاول أنت أن تنكره ولا أحاول أنا أن أخفيه !

ولكنى أراك لم تقنع بعدُ بالعلاقة بين ما ذكرتُ وبين المشكلة التى نحن بسببها ؛ إذن فاعلم يا صديقى أن جرثومة ذلك الداء هى تلك « الأرستقراطية العلمية » التى تأبى أن تعترف بقيمة الإنتاج الأدبى لأحد من « صغار المعلمين » إلا ... إلا ماذا ؟ ... معذرة فقد نسيت !

أتُراك يا صديقى قرأتَ قصة « من أدباء الجيل[1] » ؟ نعم ، إننى أذكر ذلك ، فقد كانت موضوع حديث بيننا يوماً ، ولكنى أشير عليك أن تعود إليها فتقرأها مرة ثانية ، فلعلك واجدٌ فيها متاعاً ولذة يرفهان عنك بعض ما تجد من ثقل هذا الحديث !

* * *

وأعود إلى ما كنا فيه ، فأسألك يا صديقى : أترى حقاً وصدقاً أنه لا بد من امتحان « المسابقة » للترقى فى الوظائف حين تكون كفاية الموظف فى حاجة إلى دليل ؟ ...

ففى أى مباراة سبقتَ أنت حتى صرت « مربياً كبيراً » تحكم على أقدار « صغار المعلمين » ؟ وفى أى مباراة سبق فلانٌ وفلانٌ ليكونوا أعضاء فى لجان الامتحان وحكاماً فى مباريات المعلمين ؟ ...

وأبادر فأعتذر إليك وإلى فلان وفلان ؛ فما أردت أن أغض من أقداركم العلمية ، وإنكم لأدباء من أهل التأليف والتحقيق ...

... ولكنى رأيتك فى بعض ما ساقتك إليه شجونُ الأحاديث ، تنكر قيمة كل المقاييس العلمية إلا مقياس الامتحان ، فرأيت أن أعرف أين أنت هنالك ؟ ...

أهذا ما تسميه الزهو البغيض ؟

اللهم إنى أستغفرك وأستهديك ، وأسألك إلى ما جنّبتنى من الكبرياء ، أن تزيدنى ثقة بنفسى ، ويقيناً بحق ، وإيماناً بعمل ! ...

وإنه لعلى الرغم منى — يا صديقى — ألا تتهيأ لى العواملُ النفسية التى تسمح لى أن أقبل على الامتحان ، وإن كانوا : « فى أوربا وأمريكا يتقدمون إلى المسابقات بعد الخمسين ، ولهم فى ميدان المجد الأدبى والعلمى مكان » ...

تسألنى : لماذا ؟

وأسألك : لماذا ؟

وتعرف وتسكت ، وأعرف وأغضى ، وتفترُّ الشفاهُ عن بسمات حين تتراءى صورة فلان وفلان ... « وأنت تعرف ما أريد » !

محمد سعيد العريان

المدرس بالمدرسة الابتدائية

(١) الرسالة : العدد ٣٤٥ — ١٢ فبراير سنة ١٩٤٠